

# الفصل الأول



ألف ليلة وليلة وملاحم الطغيان  
والاستبداد فى سيرة الحجاج



## تعريف

عندما يتحدث التاريخ عن الحجاج بن يوسف الثقفي، لابد أن يضع أمامه ذلك التاريخ الدموي الذي مارسه ضد أعدائه وأعداء عبد الملك بن مروان. لذلك كان وصف التاريخ له على أنه السفاح الذي كان قاسية القلب ومتشبعاً بالدماء ويتلذذ بتعذيب خصومه كان سادياً النزعة.

### من هو الحجاج بن يوسف الثقفي؟

الحجاج هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن متعب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوض بن قسي "ثقيف" وإليه تنسب قبيلته.

### من هو والده؟

هو يوسف بن أبي عقيل.

### ما هي مهنته؟

كان معلماً للصبان بالطائف.. وهم إذا قالوا معلم صبيان فإنما يقصدون بهذا الوصف "تحقيراً له" فيكفي في ذلك الزمن أن يكون الرجل من علمي الصبيان فيعني ذلك يدل على أن هذه الشخصية "ضعيف العقل - مأفون الرأي ساقط الهمة". ويبالغ البعض فيقول إن ذلك في عرف العرب يوازي الحكم بالأشغال الشاقة في عصرنا هذا؟

### لماذا يحتقر العرب المعلم؟

السبب في ذلك في احتقار العرب للمعلم أنهم كانوا يحتقرون الصناعات. والتعليم من جملتها. فلا يشتغل في التعليم إلا المستضعف الذي ليست له عصيته. أما الحجاج نفسه قام تتفق المصادر على عمل كان يتولاه الحجاج في صباه. واختلفت الآراء حول عمله، فذكر البعض إنه كان معلم صبيان بالطائف.. بينما قال آخرون إنه كان دباغاً. وقالوا إنه كان بائع زبيب "كما جاء في كتاب البيان والتبين للجاحظ".

كان والد الحجاج كما جاء في معجم البلدان من كبار الملوك في مكة، وقد تزوج "بالفارعة" سيدة نساء ثقيف وأكثرهن جمالاً.. وعندما توفي وكان الحجاج والياً على المدينة فعناه من على المنبر.

وكانت أم الحجاج هي . الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي، وكانت قبل زواجها بوالد الحجاج متزوجة بالمغيرة بن شعبة. ويروي أنها طلقت من المغيرة بن شعبة، لأنه دخل عليها مرة في السحر فوجدها تتخلل فبعث اليها بطلاقها. فسألته عن السبب فأخبرها بأنه دخل عليها في السحر فوجدها تتخلل فقال لها:

إن كنت بادرت الغذاء فأنت شرهة.. وأن كنت بت والطعام بين أسنانك.. فأنت قذرة. فقالت له .. كل ذلك لم يكن ولكني تخللت من شظايا السواك ووالله ما فرحنا إذا كنا ندمنا إذ بنا! فندم المغيرة على ما بدر منه وخرج أسفاً فلقية والد الحجاج فقال له : هل لك شيء أدعوك إليه؟ قال : وذلك؟ قال إني نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها فإنها تنجب لك.. فتزوجها فولدت له ابنه الحجاج. وكانت الفارعة أنجبت من المغيرة بنتاً.. وإن الحجاج نازع عروة بن المغيرة بعد وفاة والده في ميراث الفتاة ورفع القضية إلى ابن زياد.

### مولد الحجاج

ولد الحجاج بقرية الكوثر، وهي قرية من قري الطائف ولد في سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وقد لقب طوال حياته بالحجاج وقد أحاط المؤرخون حياته الأولى بجو من الأساطير يرجعونها على إنه كان محباً لسفك الدماء والجور والنساء.

## الحجاج بن يوسف الثقفي

ملاحح من سيرته

الحجاج بن يوسف الثقفي (٤١ - ٩٥هـ) سياسي أموي وقائد عسكري، ولد في الطائف بالحجاز سنة ٤١ للهجرة، لعب الحجاج دوراً كبيراً في تثبيت أركان الدولة الأموية، سير الفتوح، خطط المدن، وبنى مدينة واسط، ويعد من الشخصيات المثيرة للجدل في التاريخ الإسلامي والعربي، عُرف بـ (المبير) أي المبيد.

### حياته المبكرة

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن الحكم الثقفي في منازل ثقيف بمدينة الطائف، في عام الجماعة ٤١ هـ وكان اسمه كليب ثم أبدله بالحجاج. وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي الصحابي الشهيد. نشأ في الطائف، وتعلم القرآن والحديث والفصاحة، ثم عمل في مطلع شبابه معلم صبيان مع أبيه، يعلم الفتية القرآن والحديث، ويفقههم في الدين، لكنه لم يكن راضياً بعمله هذا، على الرغم من تأثيره الكبير عليه، فقد اشتهر بتعظيمه للقرآن. كانت الطائف تلك الأيام بين ولاية عبد الله بن الزبير، وبين ولاية الأمويين، لكن أصحاب عبد الله بن الزبير تجبروا على أهل الطائف، فقرر الحجاج الانطلاق إلى الشام، حاضرة الخلافة الأموية المتعثرة، التي تركها مروان بن الحكم نهياً بين المتحاربين.

قد تختلف الأسباب التي دفعت الحجاج إلى اختيار الشام مكاناً ليبدأ طموحه السياسي منه رغم بعد المسافة بينها وبين الطائف، وقرب مكة إليه، لكن يُعتقد أن السبب الأكبر كراهته لولاية عبد الله بن الزبير. في الشام، التحق بشرطة الإمارة التي كانت تعاني من مشاكل جمّة، منها سوء التنظيم، واستخفاف أفراد الشرطة بالنظام، وقلة المجندين. فأبدى حماسة وانضباطاً، وسارع إلى تنبيه أولياء الأمر لكل خطأ أو خلل، وأخذ نفسه بالشدّة، فقربه روح بن زبناح قائد الشرطة إليه، ورفع مكانته، ورقاه فوق أصحابه، فأخذهم بالشدّة، وعاقبهم لأدنى خلل، فضبطهم، وسير أمورهم بالطاعة المطلقة لأولياء الأمر.

رأى فيه روح بن زنباع العزيمة والقوة الماضية، فقدمه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان داهية مقداماً، جمع الدولة الأموية وحماها من السقوط، فأسسها من جديد.

إذ أن الشرطة كانت في حالة سيئة، وقد استهون جند الإمارة عملهم فتهاونوا، فأهم أمرهم عبد الملك بن مروان، وعندها أشار عليه روح بن زنباع بتعيين الحجاج عليهم، فلما عينه، أسرف في عقوبة المخالفين، وضبط أمور الشرطة، فما عاد منهم تراخ، ولا لهو. إلا جماعة روح بن زنباع، فجاء الحجاج يوماً على رؤوسهم وهم يأكلون، فنهاهم عن ذلك في عملهم، لكنهم لم ينتهوا، ودعوه معهم إلى طعامهم، فأمر بهم، فحبسوا، وأحرقت سرادقهم. فشكاه روح بن زنباع إلى الخليفة، فدعا الحجاج وسأله عما حمله على فعله هذا، فقال إنما أنت من فعل يا أمير المؤمنين، فأنا يدك وسوطك، وأشار عليه بتعويض روح بن زنباع دون كسر أمره.

وكان عبد الملك بن مروان قد قرر تسيير الجيوش لمحاربة الخارجين على الدولة، فضم الحجاج إلى الجيش الذي قاده بنفسه لحرب مصعب بن الزبير. ولم يكن أهل الشام يخرجون في الجيوش، فطلب الحجاج من الخليفة أن يسلطه عليهم، ففعل. فأعلن الحجاج أن أيما رجل قدر على حمل السلاح ولم يخرج معه، أمهله ثلاثاً، ثم قتله، وأحرق داره، وانتهب ماله، ثم طاف بالبيوت باحثاً عن المتخلفين. وبدأ الحجاج بقتل أحد المعترضين عليه، فأطاع الجميع، وخرجوا معه، بالجبر لا الاختيار.

### حرب مكة

في ٧٣ هـ قرر عبد الملك بن مروان التخلص من عبد الله بن الزبير، فجهز جيشاً ضخماً لمنازلة ابن الزبير في مكة، وأمر عليه الحجاج بن يوسف، فخرج بجيشه إلى الطائف، وانتظر الخليفة ليزوده بمزيد من الجيوش، فتوالت الجيوش إليه حتى تقوى تماماً، فسار إلى مكة وحاصر ابن الزبير فيها، ونصب المنجنقات على جبل أبي قبيس وعلى قعيقعان ونواحي مكة كلها، ودامت الحرب أشهراً. وقتل فيها ابن الزبير، فتفرق على ابن الزبير أصحابه، ووقعت فيهم الهزيمة.

أعلن الحجاج الأمان لمن سلم من أصحاب ابن الزبير، وأمنه هو نفسه،

غير أن عبد الله بن الزبير لم يقبل أمان الحجاج، وقاتل رغم تفرق أصحابه عنه طمعاً في أمان الحجاج فقتل. وكان لابن الزبير اثنتان وسبعون سنة، وولايته تنوف عن ثماني سنين، وللحجاج اثنتان وثلاثون سنة.

### ولاية الحجاج على الحجاز

بعد أن انتصر الحجاج في حربه على ابن الزبير، أقره عبد الملك بن مروان على ولاية مكة وأهل مكة. وكان وإياهم وأهل المدينة على خلاف كبير، في ٧٥ هـ حج عبد الملك بن مروان، وخطب على منبر النبي، فعزل الحجاج عن الحجاز لكثرة الشكايات فيه، وأقره على العراق.

### ولاية الحجاج على العراق

دامت ولاية الحجاج على العراق عشرين عاماً، وفيها مات. وكانت العراق عراقين، عراق العرب وعراق العجم، فنزل الحجاج بالكوفة، وكان قد أرسل من أمر الناس بالاجتماع في المسجد، ثم دخل المسجد ملثماً بعمامة حمراء، وأعتلى المنبر فجلس وأصبعه على فمه ناظراً إلى المجتمعين في المسجد فلما ضجوا من سكوته خلع عمامته فجأة وقال خطبته المشهورة التي بدأها بقول:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ومنها أما والله فيأني لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله، والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمامم واللحي. ثم قال: والله يا أهل العراق، إن أمير المؤمنين عبد الملك نثل كنانة بين يديه، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرها عوداً، وأشدها مكسراً، فوجهني إليكم، ورماكم بي. يا أهل العراق، يا أهل النفاق والشقاق ومساوئ الأخلاق، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسننتم سنن العي، وأيم الله لألحونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المرورة، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أحلق إلا فريت، ولا أعد إلا وفيت، إياي وهذه الزرافات، وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك؟. يا أهل العراق! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة

مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرتم بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوسقوا واعتدلوا، ولا تميلوا، واسمعوا وأطيعوا، وشايعوا وبايعوا، واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإبذار والأهذار، ولا مع ذلك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا السيف، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف، حتى يذل الله لأمر المؤمنين صعركم، ويقيم له أودكم، وصغركم، ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور .

### ولاية الوليد

مات عبد الملك بن مروان في ٨٦هـ وتولى ابنه الوليد بعده، فأقر الحجاج على كل ما أقره عليه أبوه، وقربه منه أكثر، فاعتمد عليه. وكان ذلك على كره من أخيه وولي عهده سليمان بن عبد الملك، وابن عمه عمر بن عبد العزيز. وفي ولاية الوليد هدد سليمان بن عبد الملك الحجاج إذا ما تولى الحكم بعد أخيه، فرد عليه الحجاج مستخفاً مما زاد في كره سليمان له ولمظالمه، وإذ ذاك كان قتيبة بن مسلم يواصل فتوحه في المشرق، ففتح بلاداً كثيرة في تركستان الشرقية وتركستان الغربية واشتبكت جيوشه مع جيوش الصين وكان الحجاج من سيره إلى تلك البلاد. وفي نفس الوقت قام ابن أخ الحجاج بفتح بلاد السند (باكستان اليوم).

### موت الحجاج

مات الحجاج ليلة الواحد والعشرين من رمضان عام ٩٥هـ وقيل أن موت الحجاج كان بالنقرس، وقبلها مرض مرضاً شديداً.

ترك الحجاج وصيته، وفيها قال: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث.. الخ.

تمثل عند احتضاره بهذين البيتين:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا      أيمانهم أنني من ساكني النار  
أحلفون على عمياء؟ ويحهم      ما ظنهم بعظيم العفو غفار

ويروى أنه قيل له قبل وفاته: ألا تتوب؟ فقال: إن كنت مسيئاً فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنت محسناً فليست ساعة الفزع. وقد ورد أيضاً أنه دعا فقال: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل.

دُفن في قبر غير معروف المحلة في واسط، فتنفجج عليه الوليد، وجاء إليه الناس من كل الأمصار يعزونه في موته، وكان يقول: كان أبي يقول أن الحجاج جلدة ما بين عينيه، أما أنا فأقول أنه جلدة وجهي كله.

### رأي العلماء فيه

قال الإمام الذهبي فيه: كان ظلوماً، جباراً خبيثاً سفاكاً للدماء وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن... إلى أن قال: فلانسبه ولا نعبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة الامراء.

قال ابن كثير فيه: كان فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق (الهلاك والظلم)، وكان يغضب غضب الملوك... وقال أيضاً: وكان جباراً عنيداً مقدماً على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتها ولكن يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه... وكان يكثر تلاوه القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتر عنه شيء من التلطيخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء. فلا نكفر الحجاج، ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله واحكامه، وأمره إلى الله. كما أن ابن كثير تحدث عن بعض من عينهم الحجاج وكانوا ذوي سمعة طيبة مثل عروة بن المغيرة بن شعبة حيث ولي إمرة الكوفة.

### ميراث الحجاج

بنى الحجاج واسط، وسير الفتوح لفتح المشرق، أمر بتنقيط المصحف، خطط الدولة، وحفظ أركان الدولة قامعاً كل الفتن. غير أن الحجاج خلف أيضاً ميراثاً من الظلم وسفك الدماء لم يسبق له مثيل.

كما خلف في قلوب الناس، حتى الأمويين، كرهاً له وحقداً عليه لأفعاله، ومنها حرب ابن الزبير وقتله إياه في مكة، وما فعله في وقعة دير الجماجم. وحقده عليه الخوارج لعظيم فعله بهم، والشيعه لعدم احترامه آل البيت، وقالوا فيه الكثير حتى لبسوا سيرته بالخوارق، والأمور المغلوطة، وأمعنوا في تقبيحه، والنيل منه، حتى لقد صوروه شيطاناً.

بقي ميراث الحجاج حياً إلى الآن، فلا يزال موضع حرب وتطاحن بين المختلفين، ولا تزال الأخبار المختلفة تخالط سيرته، ولا زال يُلعن، ويُسب. ويراه الباحثون المنصفون في التاريخ السياسي نموذجاً للطاغية الظالم سفاك الدماء.

### مذهبه في الحكم

كان الحجاج يرى بتكفير الخارج على السلطان وطرده من الملة، لذلك كان يرى ما يفعله تقريباً لله يرجو به الأجر. وهذا تناقضاً في فعل الحجاج في قتل المتقين من الناس من أمثال سعيد بن جبير وبين أعمال الخير التي قام بها كالتفوحات وتعظيم القرآن وتنظيم أمور المسلمين.

قيل بعد موته أن رجلاً رفض الصلاة خلف إمام من الخوارج، فقال له أحد أمّة البصرة: إنما تصلي لله ليس له، وإنما كنا نصلي خلف الحروري الأزرق. قال: ومن ذاك؟ قال: الحجاج بن يوسف، فإنك إن خالفته سماك كافراً وأخرجك من الملة، فذاك مذهب الحرورية الأزارقة.

### الحجاج وأهل العراق والشام

العلاقة بين الحجاج وأهل العراق هي من أكثر العلاقات تعقيداً وطرافة، ومن أكثرها ترويعاً في التاريخ الإسلامي، فالحجاج وُي على العراق كارهاً لأهلها، وهُم له كارهون، واستمرت العلاقة بينهم كزواج كاثوليكي بالإيجاب، لا يجوز فيه الطلاق، ولا أمل للفكك منه إلا بموت أحد الزوجين.

كان الحجاج دائم السب لأهل العراق في خطبه، فكثيرة خطبه التي يذكر فيها أهل العراق بشكل سيئ، والتي يرى فيها العراقيون إساءة إلى اليوم.

## فدائماً كان يذكرهم

”يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق....“ إلى آخر خطبه، والتي يعن فيها في ذكر صفاتهم:

”فإنكم قد اضعجتم في مراقد الضلالة...“، وغير ذلك من الخطب الكثيرة فيهم، كراهة منه لهم.

ومن ذلك أنه لما أراد الحج استخلف ابنه محمد عليهم، وخطب فيهم أنه أوصى ولده بهم بغير وصية الرسول في الأنصار، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم، وقال لهم: أعلم أنكم تقولون مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفكم لي، لا أحسن الله لك الصحابة، وأرد عليكم: لا أحسن الله عليكم الخلافة. وأنهم شمتوا به يوم فُجع بولده محمد، وأخيه محمد في نفس اليوم، فخطب فيهم متوعداً إياهم.

ومن ذلك أنه مرض فشح بين الناس موته، فخرج أهل العراق محتفلين بموته، غير أنه قام من مرضه ليخطب فيهم خطبة قال فيها: ”وهل أرجو الخير كله إلا بعد الموت“ أما أهل الشام فكانوا أكثر الناس محبة للحجاج، وأكثرهم نصرة له، وبكاء عليه بعد مماته، وقيل أنهم كانوا يقفون على قبره فيقولون رحم الله أبا محمد. وكان الحجاج محباً لهم، دائم الإشادة بخصالهم، والرفع من مكانتهم، وكان كثير الاستنصار بهم، ومعظم جيشه كان منهم، وكان رفيقاً بهم.

## ألف ليلة وليلة وملامح الطغيان والاستبداد في سيرة الحجاج

من الولاة الذين قَدَّمَتهم حكايات ألف ليلة وليلة تقدماً ساخراً للحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠-٩٥هـ/٦٦٠-٧١٤م)، فهو ظالم غشوم، يختطف زوجات المسلمين ويقدمهن هدايا لسيده الخليفة عبد الملك بن مروان، كما تصوّره حكاية «نعم ونعمة»، إذ تكشف الحكاية عن امرأة جميلة اسمها «نعم»، وقد كانت زوجة لـ «نعمة بن الربيع»، و«لم يكن بالكوفة جارية أحسن ولا أحلى ولا أظرف منها، وقد كبرت وقرأت القرآن والعلوم، وعرفت أنواع اللّعب والآلات، وبرعت في المغنى وآلات الملاهي، حتى أنّها فاقت جميع أهل عصرها» وكما يشيع خبر جميع

النساء الجميلات في مدن ألف ليلة وليلة فقد شاع خبر جمال هذه المرأة في مدينة الكوفة، فيسمع بها الحجاج، ويقرر أن يحتال عليها ويخطفها، ويقدمها هدية للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ولأن لعجائز ألف ليلة وليلة قدرات متميزة على النصب والاحتيال، فإن الحجاج يلجأ إلى إحداهن لمساعدته في حبه الحيلة، واختطاف» نعم «. يقول الراوي» ثم استدعى بعجوز قهرمانه وقال لها: امضي إلى دار الربيع واجتمعي بالجارية نعم، وتسببي في أخذها، لأنه لا يوجد على وجه الأرض مثلاً، فقبلت العجوز من الحجاج ما قاله.

وبطبيعة الحال، فإن عملية اختطاف الجارية سيكون لها مكافأة مالية كبيرة يقدمها الحجاج إلى القهرمانه، وهو مستعد لتقديم هذه المكافأة، طالما أن خطف هذه الجارية سيحقق له مكافأة أهم، وهي زيادة حظوته عند عبد الملك بن مروان، وبالتالي تغاضي هذا الأخير عن عبث الحجاج بالمجتمع الإسلامي، وتنكيله بشرفاء هذا المجتمع، كما هو معروف تاريخياً، إذ أسرف الحجاج في قتل الناس، ولم يرحم شيوخم وهم على حافة الموت، بل أمر بضرب أعناقهم كمال فعل مع الشيخ عمير بن صابئ.. وقد أحصي من قتله الحجاج بن يوسف» فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، (...) وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء» مع العلم أن جميع هؤلاء القتلى والمساجين» لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل» ويقول راوي الحكاية:» ثم إن العجوز توجهت إلى الحجاج. فقال لها: ما وراءك؟ فقالت له: إنني نظرت إلى الجارية فرأيتها لم تلد النساء أحسن منها في زمانها. فقال لها الحجاج: إن فعلت ما أمرتك به يصل إليك مني خير جزيل. فقالت له: أريد منك المهلة شهراً كاملاً. فقال لها: أمهلك شهراً».

وتستطيع القهرمانه خلال هذا الشهر أن تقدم نفسها لنعمة بن الربيع» وزوجته» نعم» وأسرته، على أنها مثال للزاهدة المتعبدة، الفانية عمرها في الركون والسجود والدعاء والصوم. وعندما يتأكد كل من في الدار أنهم أمام سيّدة زاهدة، تختلي العجوز بالجارية» نعم» وتقول لها:» يا سيدي والله إنني

حضرت الأماكن الطاهرة ودعوت لك، وأتمنى أن تكوني معي حتى تري المشايخ  
الواصلين ويدعون لك بما تختارين». وتنطلي الحيلة عليها، وعلى أم زوجها، عندما  
كان زوجها خارج منزله، إذ تقول «نعم» لأم زوجها: «سألتك بالله أن تأذني لي في  
الخروج مع هذه المرأة الصالحة لأنفج على أولياء الله في الأماكن الشريفة،  
وأعود بسرعة وقبل مجيء سيدي». وأمام دهاء العجوز القهرمانه وورعها  
الزائف، وتوق الجارية لزيارة الأماكن الشريفة، اضطرت الأم لأن تسمح لزوج ابنها  
بالخروج، وما إن تخرج الزوجة «نعم» من دارها حتى تسارع القهرمانه بالاحتيال  
عليها، وأخذها إلى قصر الحجاج بن يوسف بالكوفة، القصر الذي تظنه «نعم»،  
للوهلة الأولى، مكاناً طاهراً يجتمع فيه أهل الذكر من أولياء الله الصالحين: «  
ثم أخذت الجارية بالحيلة وتوجهت بها إلى قصر الحجاج، وعرفته بمجيئها بعد  
أن أدخلتها في مقصورة، فأق الحجاج ونظر إليها، فأراها أجمل أهل زمانها ولم ير  
مثلاً، فلما رآته نعم سرت وجهها، فلم يفارقها حتى استدعى حاجبه وأركب  
معها خمسين فارساً، وأمره أن يأخذ الجارية على نجيب سابق، ويتوجه بها إلى  
دمشق، ويسلمها إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وكتب له كتاباً».

إن للعجائز في ألف ليلة وليلة قدرة عجيبة على المكر والاحتيال، إذ تشير  
حكايات الليالي إلى أن هذه العجائز اكتسبن في حياتهن، ومن خلال تعاملهن مع  
رجال عصرهن ونسائهن، خبرة كبيرة في اصطيات الجواري الجميلات، وتقديمهن للرجال  
العشاق، مقابل مكافأة مالية. وكان الرواة جريئين عليهن، فعلى سبيل المثال نجد  
أن أحد الرواة يصف العجوز شواهي ذات الدواهي في حكاية «عمر النعمان وولديه  
شركان وضوء المكان» بالعاهرة، وب «سيده العجائز الماكرة ومرجع الكهان في الفتن  
الثائرة». وفي حكاية «علي الزبيق المصري ودليلة المحتالة ابنتها زينت النصابة»  
يصف الراوي العجوز دليلة المحتالة بأنها أخبت من إبليس الذي كان قد تعلم  
المكر منها، فقد كانت «صاحبة حيل وخداع ومناصف وكانت تحيل على الثعبان  
حتى تطلعه من وكره! وكان إبليس يتعلم منها المكر! «والعجوز في حكاية» نعم  
ونعمة «متفنعة بثياب الزهاد» «وفي تسبيح وابتهاال وقلبها ملآن بالمكر والاحتيال».

ولا تخلو مدينة من مدن ألف ليلة وليلة من العجائز الماكرات والمحتالات، إلا أنه من الملاحظ أنّ أهمّ المدن الإسلاميّة في ألف ليلة وليلة، والتي تجد فيها هذه العجائز مرتعاً خصباً لممارسة عمليّات النّصب والاحتيال، هي بالترتيب: بغداد والقاهرة ودمشق، وبخاصّة في عهدي الدّولتين الأمويّة والعبّاسيّة. ويمكن تفسير ظاهرة النّصب والاحتيال في هذه المدن، بأنّها كانت نتيجة لتفشّي ظاهرة الطّغيان والتسلّط - في هاتين الدّولتين اللّتين حكمتا هذه المدن - من جهة، وما رافق هذه الظاهرة من ظلم الحكّام وفجورهم وابتعادهم عن هموم شعوبهم ومصائبها من جهة أخرى. ومن هنا كانت الحيلة، في بنيتها العميقة، حيلة ضدّ المظالم، وضدّ المجتمع نفسه، بجميع تشكيلاته الطّبقيّة سياسياً واجتماعياً. وتورّط في هذه الحيلة الفقراء والأغنياء، النّساء والرّجال، رجال السلطة وعامة الشعب. فالشخصيّة المستلبة المحرومة من لقمة عيشها تحتال لأجل هذه اللقمة، والأغنياء يحتالون لزيادة ثرواتهم، والملوك والسلاطين والخلفاء يحتالون لزيادة جواربهم وأملاكهم، والوزراء يحتالون على ملوكهم وبناتهم الأميرات الجميلات، ونساء السلطة المتخلمات ثراءً وبطراً يحتلن لإشباع متطلباتهنّ الجنسيّة والمحرّمة، ونساء التجار تحتال على أزواجهن للخروج من المنازل والوصول إلى عشاقهنّ من الغلمان الظرفاء، والقهرمانّة العجوز في حكاية «نعم ونعمة» تجد نفسها مندفعة للتورّط في الحيلة، لأنّها تحقّق من خلالها امتلاك الثروة من جهة، وتأمين شرّ السلطة السياسيّة وبطشها من جهة أخرى، فهي لا تستطيع أن ترفض طلب والٍ ظالم كالحجّاج بن يوسف الثقفي.

وقد أدّى سعار التجديد الجنسيّ عند شخوص ألف ليلة وليلة في المدن الإسلاميّة، في أحيان كثيرة، إلى ظهور نوع من العجائز المحتالات، والعارفات بفنون الصبوة والعشق وسعار الجسد، والمتخصّصات في خطف النساء، إلا أنّ حيل العجائز في الليالي ليست قصديّة، أو ليست موجودة عند هذه العجائز لأنّ لهنّ طاقة عجيبة على الشرّ والمكر، وعلى تعليم إبليس فنون الحيلة كما يرى أحد الرّواة، وكما أشير إلى ذلك سابقاً بل لأنّ المجتمع الذي عايشته هذه العجائز هو مجتمع التّباین الطّبقي، ومجتمع الذّكور

الذي تُحرم فيه النساء من كثير من امتيازات الرجال، المجتمع الذّي يلد الرجال،» أي ما يمكن أن نقول عنه، بأنّ الرجل يلد الرجل، والذكر داخل ابنه الذكر، واسم الدّم والمنّي داخل الابن، وحسب هذا النظام كانت المرأة (...) الجهيضم المنحرف والثّانوي» ومن هنا فإنّ حيلة النساء بشكل عام في اللّيالي كانت نتيجة للبنى الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة الفاسدة، التي يشكّلها الحكّام الذّكور، ورجال السّلطة الأقوياء، والتي يُؤدّي منها، بالإضافة إلى النساء، الرجال الفقراء الفاقدون لجميع وسائل القوّة والملكيّة. ويرى أحد الباحثين أنّ» ظاهرة العجوز [المحتالة] في اللّيالي تجسيد لمعاناة الجوّاري والحرائر على حدّ سواء بكل جوانبها المضطربة مما جعل سلوكها في اللّيالي امتداداً للذّات المحرومة فراحت تخطّط لتحقيق آمال تعينها على سحق الحرمان بسلوك كان يعتبره المجتمع السّائد مقبولاً بالإضافة إلى خضوعه للوقائع اليوميّة في ممارسات الحياة».

وبالعودة إلى حكاية» نعم ونعمة» يلاحظ أنّ الحجّاج لا يعمل على العبث بأمن مواطنيه في الكوفة، وتفريقهم عن أزواجهم، وتهجيرهم قسرياً عن أوطانهم، ونشر بذور الفساد، وذلك بتشجيع مفاهيم الاحتتيال والاختطاف فحسب. بل هو يكذب على الخليفة عبد الملك بن مروان، ويدّعي أنّه اشترى له الجارية الجميلة» نعم» بعشرة آلاف دينار.

يقول الراوي:» فتوجّه الحاجب وأخذ الجارية على هجين، وسافر بها وهي باكية العين من أجل فراق سيّدها، حتى وصلوا إلى دمشق، واستأذن على أمير المؤمنين فأذن له، فدخل الحاجب عليه وأخبره بخبر الجارية، فأخلى لها مقصورة. ثم دخل الخليفة حريمه فرأى زوجته، فقال لها: إنّ الحجّاج قد اشترى لي جارية من بنات ملوك الكوفة بعشرة آلاف دينار، وأرسل إليّ هذا الكتاب وهي صحبة الكتاب».

إنّ سلوك الحجّاج في الحكاية، وهو يخطف النساء، ويؤسس لما يهدم القيم الإنسانيّة في المدينة الإسلاميّة، من كذب واحتتيال، وتفريق بين المحبّين، وتهجير قسري لهم، ليس غريباً أو بعيداً عن مجمل مواقفه وتصرفاته الثّاريخيّة التي كانت معادية لجميع مفاهيم الحقّ والعدل، والرّحمة بالرعيّة. وهما هو يعترف بنفسه أنّ فيه كثيراً من العيوب التي تؤكّد معاداتها للمفاهيم الإنسانيّة التي

يجب أن يتحلّى بها من يصبح والياً على المسلمين، من خلال حوارهِ الآتي مع الخليفة عبد الملك بن مروان: « وقال عبد الملك بن مروان للحجاج: إنَّه ليس من أحدٍ إلَّا وهو يعرف عيب نفسه، فصِف لي عيوبك.

قال: أعفني يا أمير المؤمنين.

قال: لست أفعل.

قال: أنا لجوج لدود حقود حسود.

قال: ما في إبليس شرٌّ من هذا)).

ويدين الراوي في حكاية « نعم ونعمة » جلاوزة الحجاج، وصاحب شرطته، إذ يصوره متقاعساً عن كشف جرائم الاختطاف التي تحدث في الكوفة، ومتواطئاً مع سيده الحجاج في التغطية على خطف « نعم » جارية « نعمة »، إذ بعد أن تُخطف الجارية يشكُّ « نعمة » بأنَّ الذي خطف جاريته هو صاحب الشرطة، فيتوجّه إلى داره، ويتوعده بأنه سيشكوه إلى الحجاج إن لم يرجع الجارية له. يقول الراوي: « ثمَّ توجه إلى صاحب الشرطة فقال له: أتحتال عليّ وتأخذ جاريّتي من داري فلا بدّ لي أن أسافر وأشتكيك إلى أمير المؤمنين. فقال صاحب الشرطة: ومن أخذها؟ فقال: عجوز صفتها كذا وكذا، وعليها ملبوس من الصوف وبيدها سُبحة عدد حبّاتها ألوف. فقال له صاحب الشرطة: أوقفني على العجوز وأنا أخلّص لك جاريّتك. فقال: ومن يعرف العجوز؟ فقال له صاحب الشرطة: ما يعلم الغيب إلَّا الله سبحانه وتعالى. وقد علم صاحب الشرطة أنّها محتالة الحجاج، فقال له نعمة: ما أعرف حاجتي إلَّا منك وبينني وبينك الحجاج. فقال له: امضِ إلى من شئت. » إلَّا أنّ خيبة « نعمة بن الربيع » كانت شديدة عندما استمع إلى المسرحيّة الهزليّة التي افتعلها الحجاج مع صاحب شرطته، طالباً منه أن يبحث عن العجوز المحتالة، وعن الجارية « نعم »، ويعيدها إلى صاحبها: « فقال [الحجاج]: هاتوا صاحب الشرطة فنأمره أن يفتش على العجوز. فلمّا حضر صاحب الشرطة قال له: أريد منك أن تفتش على جارية نعمة بن الربيع. فقال له صاحب الشرطة: لا يعلم الغيب إلَّا الله تعالى. فقال له الحجاج: لا بدّ أن تركب الخيل وتبصر الجارية في الطرقات وتنظر

في البلدان (...)) والطَّرقات وتفتَّش على الجارية. ثمَّ التفت إلى نعمة وقال له: إن لم ترجع جاريتهك دفعت لك عشر جوارٍ من دار صاحب الشَّرطة.»

وعندما سمع «نعمة» ما قاله الحجاج، خرج يائساً وذهب إلى داره، فشاهده والده الرِّبيع بن حاتم الذي كان من أكابر أهل الكوفة ووجهائها، وخبيراً عارفاً بأخلاق الحجاج وتجاوزاته، وتواطؤ صاحب شرطته، وتغطيته لهذه التجاوزات، وتأكد أنّ الذي خطف زوج ابنه هو الحجاج بن يوسف الثقفي. يقول الراوي: «وخرج نعمة مغموماً وقد يئس من الحياة، وكان قد بلغ من العمر أربع عشرة سنة، ولا نبات بعارضيته، فجعل يبكي وينتحب، وانعزل في داره. ولم يزل يبكي إلى الصباح، فأقبل والده عليه وقال: يا ولدي إنّ الحجاج قد احتال على الجارية وأخذها، ومن ساعة إلى ساعة يأتي الله بالفرج من عنده، فتزايدت الهموم على نعمة وصار لا يعلم ما يقول ولا يعرف من يدخل عليه. وأقام ضعيفاً ثلاثة أشهر حتّى تغيّرت أحواله ويئس منه أبواه، ودخلت عليه الأطباء فقالوا: ما له دواء إلا الجارية.»

وما إن يصل «نعمة بن الرِّبيع» إلى دمشق، لأجل البحث عن جاريته، حتى يكشف السرد الحكائي عن وجود جاريته «نعم» في قصر عبد الملك بن مروان. وهنالك في قصر الخليفة تنكشف الحقيقة، وتؤكد أخت الخليفة أنّ الحجاج كان كاذباً في ما ادّعاه: «فقالت أخت الخليفة: يا أمير المؤمنين إنّ هذه الواقعة هي نعم المسروقة. سرقها الحجاج بن يوسف الثقفي وأوصلها لك، وكذب فيما ادّعاه في كتابه من أنّه اشتراها بعشرة آلاف دينار، وهذا الواقف هو نعمة بن الرِّبيع سيّدها، وأنا أسألك بحرمة آبائك الطّاهرين أن تعفو عنهما وتهبهما لبعضهما، لتغتم أجرهما، فإنّهما في قبضتك وقد أكلتا من طعامك وشربتا من شرابك، وأنا الشّافعة فيهما المستوهبة دمههما.»

وتؤكد الحكاية أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان عفا عنهما، ووهبها لبعضهما. وقد يتساءل متلقّي الحكاية: لِمَ تستحلف أخت الخليفة - التي لا يذكر الراوي اسماً لها - أخاها أن يعفو عنهما؟ وما هي الجريمة التي ارتكباها حتى يعفو عنهما؟ وما جدوى هذا العفو مادام لا يوجد هناك أية جريمة؟. فبحث «نعمة»

عن زوجته هو بحث مشروع، ولم يكن متجاوزاً لهيبة الخليفة وسلطاته، مادامت الجارية الأسيرة في قصره هي زوجة رجل من رعاياه كان قد ظلمه الحجاج والي هذا الخليفة. ولأنّ الراوي في هذه الحكاية مؤدج ضدّ الوالي الظالم الحجاج، ومتعاطف مع سيّده عبد الملك بن مروان في آن، فقد رأى ضرورة أن يتحلّى أمير المؤمنين بدمشق، بالحكمة والعدل، اللّذين يدفعا عنه للعفو عن «نعمة» وزوجته» نعم». وقد اضطرّ أن يقول على لسان الخليفة: «لا بأس عليكم فقد وهبتكما لبعضكما». وقد غاب عن إيديولوجية هذا الراوي أنّ «نعمة» و «نعم» ليسا مجرمين بحق سلطة عبد الملك بن مروان وسياسته، وأنّ هذا العفو في المحصلة الأخيرة ليس كرمًا من الخليفة، ولا مآثرة من المآثر التي يجب أن تُذكر له، مادام المعفو عنهما مظلومين ومهجرين من قبل واليه المحتمل الحجاج. ويمكن القول: إنّ أي رجل عادي سويّ جنسيًا، ومستقيم أخلاقيًا، لو وُضع موضع الخليفة عبد الملك بن مروان لكان قد تصرف مثله، وأرجع» نعم» لسيّدها» نعمة».

و من الملاحظ، أنّه على الرّغم من أنّ عبد الملك بن مروان تأكّد أنّ واليه الحجاج قد اعتدى على حرمة المرأة» نعم» وكرامتها، وسلبها حرّيتها بالخطف، وحوّلها إلى جارية مستلبة، وهجرها قسريًا من مدينتها الكوفة، وحرّمها من زوجها» نعمة». وسبب تعاسة لهذا الزّوج كادت تفتك به، واجترأ وكذب على الخليفة - على الرّغم من أنّه يمثّل أعلى رمز سياسيّ سلطويّ، ودينيّ في الدّولة الإسلاميّة قاطبة، في عهد بني أميّة - وعلى الرّغم من كل ذلك، فإنّ الحكاية تنتهي من دون أن تشير أية إشارة إلى أنّ الخليفة عاقب واليه الحجاج على جرمته أو أذانه، أو حتّى استدعاه، وسأله: لماذا ينتهك حرّيات منازل المسلمين، ويعتدي على حرّيات المواطنين في الكوفة؟. ولقد غاب عن الراوي المتعاطف مع نظام السّلطة الإسلاميّة المركزيّة بدمشق، والتي يمثّلها عبد الملك بن مروان، أنّ انفراج الحكاية على نهاية سعيدة، ينعم بها أبطال الحكاية: عبد الملك بن مروان، و «نعمة» و «نعم»، والطبيب العجمي الذي سافر مع «نعمة» من الكوفة إلى دمشق، حيث «أقاموا في أطيب عيش إلى أن أتاهم هادم اللّذات ومفرّق الجماعات

«، ليس شرطاً أن يشكّل حالة سعيدة، أو أدنى مستوى من مستويات العيش الطّيب عند مواطني الكوفة الذين يتعرّضون لمزيد من ظلم الحجاج وانتهاكاته لحرمان منازلهم، طالما أنّ الخليفة تجاوز عن جريمة الحجاج ولم يعاقبه عليها، وطالما أنّه ما دام قائماً على رأس السّلطة السّياسيّة والدّينيّة في الكوفة.

ويشير المؤرّخون، إلى أنّ الحجاج بقي والياً للخليفة عبد الملك بن مروان، طوال استلام هذا الأخير لمنصب خلافة المسلمين في دمشق الأمويّة، ولم يعزله عن العراق أو يسجنه أو يعاقبه العقاب الرّادع الذي يجعله يكفّ عن أذى المسلمين وسجنهم وسفك دمائهم، على الرّغم من معرفته الأكيدة بما سبّبه واليه الحجاج للمسلمين من أذى ومصائب، وتقتيل وتنكيل، لأنّه هو الذي سلّطه على النّاس، وأطلق يده فيهم، وسمح له برمي الكعبة بالمنجنيق. وربّما كان قد آلمه أسلوب القتل والتنكيل الذي انتهجه الحجاج، لأنّه عندما بلغه أنّ الحجاج قتل الشّاعر عمران بن عصام العنزي وابن الأشعث، استنكر قائلاً: «قطع الله يد الحجاج». ومات عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ/٧٠٥م، واستلم ابنه الوليد بن عبد الملك مقاليد الحكم، وظلّ الحجاج والياً في عهده، منتهجاً السّياسة التي انتهجها في عهد أبيه عبد الملك، من سجن وترهيب وقتل، إلى أن مات سنة خمس وتسعين هجرية، في مدينة واسط العراقيّة. وبعد موته، يتأمّل الخليفة الأمويّ سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ/٧١٥م) ما جرى للذين ظلمهم الحجاج، ويسأل كاتبه يزيد بن أبي مسلم بعد أن ازدراه ونبت عينه عنه: «عن مصيره قائلاً:» أتظنّ الحجاج استقرّ في قعر جهنّم أم هو يهوي فيها»، ويحييه الكاتب قائلاً: «يا أمير المؤمنين، إنّ الحجاج يأتي يوم القيامة بين أخيك وأبيك، فضعه من النّار حيث شئت».

إنّ الحجاج بن يوسف الثّقفي في حكاية «نعم ونعمة» يظلم «نعمة» ويخطف جاريته، وصاحب شرطته يتغاضى عن هذا الظلم، والخليفة عبد الملك بن مروان يتغاضى عن ظلمهما معاً. وهكذا تتسلسل حلقات المظالم، لتتشابك فيما بينها، وتشكّل حلقة واحدة متماسكة، يستحيل على الأفراد البسطاء في مدن ألف ليلة وليلة الأمويّة أو العبّاسيّة، أو الأسطوريّة، أن يخترقوها، أو يهربوا من

قبضتها . وتذكرنا هذه الحلقة من المظالم بهذه السلسلة من الخيانات التي تتحكّم في بنية النظام الأمويّ، من قاعدته حتى رأسه ، وتنخره وتملؤه شراً وفساداً، والتي يذكرها ابن عبد ربّه الأندلسيّ قائلاً: «اطّلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغوطة فأنكر منها شيئاً، فقال لوكيله: ويحك! إنّي لأظنك تخونني. قال: أفتظنّ ذلك ولا تستيقنه؟»

قال: وتفعله؟.

قال: نعم، والله إنّي لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإنّ أمير المؤمنين ليخون الله، فلعن الله شرّ الثلاثة».

ويتفق رواة ألف ليلة وليلة، في الحكايات التي ذكرت الحجاج بن يوسف الثقفي، على أنه أهمّ ممثلي الولاة الظلمة والاستبداديين الذين ذكرتهم الليالي، ورسمت ملامحهم، تأسيساً على الأدبيّات التاريخيّة التي ساعدت رواة الليالي على تشكيل حكاياتهم، أو نقلها بتحويرات طفيفة جدّاً. ففي حكاية «رجل من الحجيج مع المرأة العجوز» ينقل الراوي بعض ما قرأه من آراء الفقهاء في ضرورة وجود السلطان في الأمة، حتّى ولو كان هذا السلطان جائراً، ويقول: «وفي الأمثال: جور السلطان مائة سنة ولا جور الرعيّة بعضهم على بعض سنة واحدة، وإذا جارت الرعيّة، سلط الله عليهم سلطاناً جائراً، وملكاً قاهراً».

ولكي يؤكّد الراوي أنّ الحجاج بن يوسف الثقفي كان جائراً في سياسته على مواطنيه في العراق، فإنّه يثبت الرأي الفقهي السابق بوصفه مدخلاً، يستطيع من خلاله أن يثبت إيديولوجيته المعادية للحجاج، هذه الإيديولوجيّة التي تتبنّى في آن النظرية الفقهيّة السابقة التي دعا إليها بعض الفقهاء. ومن خلال المدخل الفقهيّ السابق يثبت راوي الحكاية آراء الحجاج بن يوسف التي يعتمد عليها منهجاً له في رسم سياسته الجائرة، ومن ثمّ ليشير إلى استنكار الناس لهذه السياسة البعيدة عن تقوى الله ومرضاته: «ورد في الأخبار أنّ الحجاج بن يوسف رُفعت إليه في بعض الأيام قصّة مكتوب فيها: اتقّ الله ولا تجر على عباد الله كلّ الجور. فلمّا قرأ القصّة رقي المنبر وكان فصيحاً فقال: أيّها الناس إنّ الله تعالى سلطني

عليكم بأعمالكم فإن أنا متّ فأنتم لا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال  
السيّئة لأنّ الله تعالى خلق أمثالي خلقاً كثيراً وإذا لم أكن أنا كان من هو أكثر  
منّي شراً وأعظم جوراً وأشدّ سطوةً كما قال الشاعر في معنى ذلك:

و لا ظالم إلا سيلى بأظلم      و ما من يد إلا يد الله فوقها

و إذا كان الحجاج يُسوِّغ لنفسه جوره و ساديته، وتنكيله بعباد الله في المدن  
الإسلامية التي يحكم أمرها، لأنّ لهؤلاء العباد مواقف رافضة ومعادية لسياسته  
الدموية، فإنّه في نهاية المطاف لا يمثّل إلا وجه المستبدّ الظالم، الذي يقف وراءه  
نظام سياسيّ أكثر استبداداً وظلماً منه، ليعزّز بطشه، ويُسوّغ له سياسته السادية  
المعادية لأفراد شعبه، ف« الحكومة المستبدّة تكون طبعاً مستبدّة في كلّ فروعها  
من المستبدّ الأعظم إلى الشرطيّ إلى الفرّاش، إلى كُنّاس الشوارع؛ ولا يكون كلّ  
صنّفٍ إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً، لأنّ الأسافل لا يهتمهم طبعاً الكرامة  
وحسن السمعة، إنّما غاية مسعاهم ان يبرهنوا لمخدومهم بأنّهم على شاكلته  
(...) ولهذا لا بدّ أن يكون الوزير الأعظم للمستبدّ هو اللئيم الأعظم في الأمة،  
ثمّ من دونه لؤماً وهكذا تكون مراتب الوزراء والأعوان حسب مراتبهم في  
التشريفات والقربى منه.»

وتاريخياً تشير المصادر إلى أنّ السياسة التي كان ينتهجها الحجاج كانت  
تتأسّس على خطاب استبدادي قامح، يرتكز في بنيته الأساسية على تهديد أهل  
العراق والتنكيل بهم، والسخرية منهم، حتى يستطيع إذلالهم وتسخيرهم، وليّ  
هاماتهم أمام سطوة النظام السياسيّ الذي يمثّله، فمنذ أن وصل الكوفة دخل  
المسجد الجامع فيها، واعتلى المنبر وخطب:

«والله إنّني لأرى رؤوساً أينعت وقد حان قطافها وإنّي لصاحبها، وإنّي لأرى الدماء  
ترقرق بين العمائم واللّحى، والله يا أهل العراق إنّ أمير المؤمنين نثر كنانته بين  
يديه، فعجم عيدانها، فوجدي أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي، لأنّكم طالما  
أثرتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكّلنّ بكم في البلاد ولأجعلنّكم  
مثلاً في كل واد، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل، وإنّي يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت،

ولا أعزم إلا أمضيت (...) فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار وإنما هو هذا السيف.»

ولقد كان الحجّاج، في ما بعد، وفيّاً بوعده، إذ أعمل السيف في أهل العراق وذبح رجالهم وشيوخهم، وسجن نساءهم واستأصل أموالهم. وهما هو يعترف أمام خالد بن يزيد بن معاوية ذاكراً عدد الذين قتلهم كما يروي أبو الفرج الأصفهاني: «قدم الحجّاج على عبد الملك [بن مروان] فمرّ بخالد بن يزيد بن معاوية ومعه بعض أهل الشام، فقال الشّامي لخالد: من هذا؟ فقال خالد كالمستهزئ: هذا عمرو بن العاص، فعدل إليه الحجّاج فقال: إني والله ما أنا بعمر بن العاص، ولا ولدت عمرواً ولا ولدني ولكّني ابن الغطريف والعقائل، من قريش، ولقد ضربت بسيفي أكثر من مائة ألف كلهم يشهد أنك وأباك من أهل النّار، ثمّ لم أجد لذلك عندك أجراً ولا شكراً.»

ويقدّم أحد الرّواة الحجّاج في حكاية «الحجّاج بن يوسف الثّقفي مع هند بنت التّعمان» تقدماً ساخراً. إذ يجعل زوجته هند بنت النعمان تجترئ عليه وتصفه بالكلب وتبدي فرحها الشّديد بتطليقه لها، فعندما أراد الحجّاج طلاقها: «بعث إليها عبد الله بن طاهر يطّلقها، فدخل عبد الله بن طاهر عليها، وقال لها: يقول لك الحجّاج أبو محمّد إنّ لك عليه من باقي الصّدّاق مائتي ألف درهم، وهي هذه حضرت معي وقد وكلّني في الطّلاق فقالت: اعلم يا ابن طاهر أنّنا كنّا معه والله ما فرحت به يوماً قط، وإن تفرّقنا والله لا أندم عليه أبداً، وهذه المائتا ألف درهم لك بشارة خلاصي من كلب بني ثقيف.» ومن شدّة احتقارها له فإنّها عندما تتأمّل نفسها في المرآة ترى أنّها مهرة عربيّة وأنّ زوجها الحجّاج بغل لا يستحقّها، وتعتقد أنّ سلالتها الصافية النقيّة هي القادرة على إنجاب الأولاد المتميّزين عرقاً وأصالة، وفي حال أنّ هذه السلالة عجزت عن إنجاب هؤلاء الأولاد فإنّ السّبب الرئيس في ذلك يعود إلى خسة الحجّاج، ودونيّة منزلته، وسلالته غير القادرة على إنجاب المتفوقين بيولوجياً وعرقياً، تقول:

سلالة أفراس تخللها بغل  
وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل  
وما هند إلا مهرة عربية  
فإن ولدت فحلاً فله درها

وعندما يسمع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بحسنها وجمالها، يرسل إليها راغباً الزواج بها، فتكتب إليه محتقرةً زوجها السابق - الحجاج! «الثناء على الله والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أما بعد، فاعلم يا أمير المؤمنين أن الكلب ولغ في الإناء». ويرسل إليها مؤكداً رأيها في الحجاج ومحتقراً له، من خلال استناده إلى حديث من أحاديث رسول الله (ص). يقول الراوي: «فلما قرأ كتابها أمير المؤمنين ضحك من قولها، وكتب لها: قوله صلى الله عليه وسلم» إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب» وقال اغسلي القذى عن محل الاستعمال».

ومن ملامح احتقار الخليفة عبد الملك بن مروان لعامله الحجاج أنه يرضى بالشرط الذي اشترطته هند على الخليفة حتى تقبله زوجاً، فقد اشترطت عليه ما يلي: «بعد الثناء على الله تعالى يا أمير المؤمنين إني لا أجري العقد إلا بشرط فإن قلت ما الشرط، أقول: أن يقود الحجاج محملي إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون حافياً بملبوسه الذي هو لابسه». ويوعز للحجاج أن يقود محلها من بلدها معرة النعمان إلى مدينة دمشق مقر الخلافة، فيمثل الحجاج للأمر، ويسافر من العراق إلى بلدها معرة النعمان ليقود محلها إلى دمشق حافياً ذليلاً. ويقدر ما يبدو شرط هذه المرأة سخيلاً ومتسلطاً وفاقداً لأبسط مفاهيم القيم الإنسانية والجمالية، في علاقات الزواج في المدينة الإسلامية، يبدو قبول الخليفة عبد الملك بن مروان بهذا الشرط احتقاراً ومهانة لعامله الحجاج، وبخاصة عندما يمشي حافياً أمام محمل زوجته السابقة، وهي تتشقى منه محتقرةً. يقول الراوي: «فلما ركبت المحمل وركب حولها جواربها وخدمها ترجل الحجاج وهو حافٍ وأخذ بزمام البعير يقوده وسار بها! فصارت تسخر منه وتهزأ به وتضحك عليه مع بلانتها وجواربها». هذا

إذا عرفنا أنّ المسافة التي يجب على الحجاج أن يقطعها حافياً، وهي ما بين معرّة النعمان ودمشق، تقدّر بحوالي أربعمئة كيلومتر.

وليس غريباً أن يقبل عبد الملك بن مروان بشرط هذه المرأة حتّى ترضى به زوجاً بعد أن سلب منه كرسيّ السّلطة حبّه للعلم والمعرفة، والقيم الأخلاقيّة الإنسانيّة التي دعا إليها النصّ القرآنيّ، إذ يُروى عن هذا الخليفة أنّه كان «قبل الخلافة أحد فقهاء المدينة، وكان يُسمّى حمامة المسجد، لمداومته على قراءة القرآن. فلما مات أبوه وبُشّر بالخلافة أطبق المصحف وقال: هذا فراق بيني وبينك. وتصدّى لأمر الدّنيا. وقيل إنّهُ قال يوماً لسعيد بن المسيّب: يا سعيد قد صرت أفعل الخير، فلا أُسرّ به وأصنع الشّر فلا أُساء به. فقال له سعيد ابن المسيّب: الآن تكامل فيك موت القلب.»

إنّ هذا الشّرط الغرائبيّ الذي اشتراطته هند على الخليفة، وقبوله به لا يعني إلّا شذوذاً وانحرافاً في التفكير والسّلوك، يسعى صاحبه إلى تحقيق رغبة استبداديّة ساديّة من رغبات الخلفاء ونساء السّلطة في مدن ألف ليلة و ليلة، إذ تغيب ظاهرة الحلم والعفو عند هؤلاء ليحلّ محلّها سلوك مستبد يُرضي طموح ذات سلطويّة مريضة، لا ترى في شعبها إلّا قطيعاً مهمّته أن يظلّ منقاداً لها، و«كما تقضي الطّبيعة بأن يقود الرّاعي قطيعه، ويتصرّف به، وبأن يستجيب القطيع لراعيه ويتبعه، تقضي بأن يقود الحاكم شعبه، أي رعيّته، ويتصرّف به، وبأن يطيع الشّعب حاكمه، أي راعيه، ويتبعه (...) ففي النهاية لا يبحث الرّاعي إلّا عن مصلحته ولذّته، ومصير القطيع لا يتعدّى تغذية صاحبه.»

إنّ الحجاج في نهاية المطاف مجبرٌ على أن يلبي مطالب الخليفة عبد الملك بن مروان، مهما كانت قاسية عليه، ومهينة له، لأنّ تلبّيته لهذه الأوامر هي الكفيلة ببقائه في منصبه السّلطويّ المتميّز. وإذا كانت سيرة الحجاج التاريخيّة وصمة في جبين الخلافة الأمويّة، وصفحات هذه السّيرة في ليالي ألف ليلة و ليلة سوداء ملطّخة بسرقة نساء المسلمين، والتّحايل عليهنّ، والاعتداء على حرّياتهنّ الشّخصيّة، كما أشير إلى ذلك. فإنّ هذه السّيرة - ووفق المنطق الإنساني والعقلاني

- لا تُسَوِّغ للخليفة عبد الملك بن مروان إذلاله واحتقاره لواليه الحجاج، وإجباره على أن يمشي حافياً من معرّة النعمان إلى دمشق، إرضاءً لرغبة امرأة جميلة، يشتهيها، لمجرد أنّه سمع بجمالها الأخاذ . فالحجاج طلق هند بنت النعمان، مثلما يطلق أيّ رجل امرأته وأعطاه مهرها، استناداً إلى نصوص تجيز له ذلك، مستمداً من تشريعات النكاح الإسلامي ولا تشير الحكاية بأيّة إشارة إلى أنّ الحجاج عندما طلق زوجته أهانها أو احتقرها، ومع ذلك أهانه سيّده عبد الملك بن مروان شرّاً إهانته، إرضاءً لرغبة هذه المرأة المستبذّة.

و من مظاهر احتقار هذه المرأة لزوجها الحجاج، كما يقول الراوي: إنّها «لم تزل تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة فلمّا وصلت إلى البلد، رمت من يدها ديناراً على الأرض وقالت له: يا جمال إنّه سقط منّا درهم! فنظر الحجاج إلى الأرض فلم ير إلاّ ديناراً، فقال لها: هذا دينار، فقالت له: بل هو درهم، فقال لها: بل هو دينار، فقالت: الحمد لله الذي عوّضنا بالدرهم ديناراً، فناولني إياه فخبّل الحجاج من ذلك». ويمكن القول، تأسيساً على سلوك عبد الملك بن مروان مع واليه الحجاج: إنّهُ لا أمان لأيّ رجل في مدن ألف ليلة وليلة، مهما كان عالي القدر، في ما إذا كان متزوجاً من امرأة جميلة، سمع بها الخليفة واشتهاها، على الرّغم من طلاق هذا الرجل لهذه المرأة في ما بعد. وعلى سبيل المثال: لقد عبّرت إحدى جوارى ألف ليلة وليلة في بغداد عن خوفها على حياة حسن البصريّ، في ما إذا سمع الخليفة هرون الرشيد بجمال زوجته منار السنا وسحرها. وحذّرت سيّدتها زبيدة من أن يسمع الخليفة بجمال هذه الزوجة، قائلة: «وحقّ نعمتك يا سيّدي إن عرف بها أمير المؤمنين قتل زوجها وأخذها منه، لأنّه لا يوجد مثلها واحدة من النساء وقد سألت عن زوجها، فقالوا إنّ زوجها رجل تاجر اسمه حسن البصري (...). وأنا أخاف يا سيّدي أن يسمع بها أمير المؤمنين فيخالف الشرع ويقتل زوجها ويتزوّج بها!».

و إذا كان الخليفة عبد الملك بن مروان في حكاية «الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان» قد أهان أهمّ رموز سلطته - واليه الحجاج -

إرضاءً لرغبة طليقته، فكيف تكون حال الرجل العادي في دولة الخلفاء، فيما إذا رغبت طليقته الجميلة في إذلاله، وبخاصة إذا كانت هذه الطليقة الجميلة عشيقة لأحد الخلفاء أو الأمراء؟. بلا شك يمكن أن يُغتال، أو يُسجن أو يُنفى، فيما إذا رغبت هذه الطليقة الانتقام منه، لأنّ الرعيّة في دول خلفاء وملوك ألف ليلة وليلة مجبرة على أن تكون مملوكة لهؤلاء الخلفاء والملوك، وعاجزة عن أن تقول لهم: لا، فيما إذا اعتدوا عليها وعلى أملاكها، ف«العلاقة بين الحاكم والمحكوم (...). ليست أكثر من علاقة بين مالك ومملوك، فالحاكم يملك رعيّته والرعيّة ملك لحاكمها، والحكم مُلك، أو نوع من أنواع الملك.»

و إذا كان الخليفة عبد الملك بن مروان قد عاقب واليه الحجاج هذه العقوبة المهينة والمشيئة، في الحكاية السابقة، على الرغم من عدم خطئه، فإنّه في حكاية «نعم ونعمة» لم يعاقبه على الرغم من خطئه الفادح باحتياله على «نعم» وسرقتها، والسفر بها إلى دمشق، وتقديمها له هدية، وكذبه عليه. وهنا يبدو موقف الخليفة طبيعياً، لأنّ الحجاج وظّف انتهاكاته للحرمات في حكاية «نعم ونعمة» من أجل إرضاء الخليفة عبد الملك بن مروان، فالخليفة مسرور منه لأنّه أرسل إليه تلك المرأة الحسنة» نعم». أمّا في حكاية «الحجاج مع هند بنت النعمان» فإن مصلحة الخليفة تقتضي أن يذلّ واليه الحجاج لكي ترضى به الحسنة الأخرى - هند بنت النعمان - زوجاً لها. إنّ الآليّة الذهنيّة والسلوكيّة التي ينطلق منها الخلفاء - في ألف ليلة وليلة - في قراراتهم وطبيعة أحكامهم تهدف - بالدرجة الأولى - إلى تحقيق مصالحهم، وطموحاتهم، وغاياتهم، وملذّاتهم.

و يبدو أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان في النصوص التاريخيّة، كان يعرف أنّ واليه الحجاج ظالم وسفّاك، وكان يحتقره على الرغم من أنّه يده الطولى التي كانت تفتك بجميع معارضي نظام حكمه، وتوجّهاته السياسيّة. ولأنّه كان اليد الفاتكة بخصومه، فقد أبقاه والياً على العراق إلى حين وفاته - وفاة عبد الملك بن مروان - وها هو يكتب إليه محدّراً من استفحال ظلمه وتجاوزاته، واستيلائه على أموال الناس، وإسرافه في عقوبتهم، وسفكه لدمائهم: «أمّا بعد، فقد بلغ

أمير المؤمنين سرفك في الدماء، وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين  
الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء: في الخطأ  
الديّة، وفي العمْد القوْدُ، وفي الأموال رُدّها إلى مواضعها، (...) وسيأتيك من أمير  
المؤمنين أمران: لينٌ وشدّة فلا يؤنسنك إلاّ الطاعة، ولا يوحشئك إلاّ المعصية، وظنّ  
بأمير المؤمنين كلّ شيء إلاّ احتمالك على الخطأ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا  
تقتلنّ جانحاً ولا أسيراً، وكتب في أسفل كتابه:

وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه  
فإنك مجزيّ بما أنت كاسبه.  
إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها  
فلا لا تلمني والحوادث جمة

وعلى الرغم من معرفة عبد الملك بن مروان بسلوك واليه الحجاج الدمويّ،  
فإنّه كان يرفض أن يُدّمّ أمامه، بل كان يدافع عنه ويؤخّ من يذكره بسوء.  
ويُروى أنّ إبراهيم بن محمد بن طلحة الذي كان من خاصّة الحجاج، وذا منزلة  
عظيمة عنده، قدم إلى عبد الملك بن مروان، وطلب منه أن يستمع إلى نصيحته  
التي لا يجد بُدّاً من ذكرها، فسمح له عبد الملك ابن مروان قائلاً: «يا بن  
طلحة، قل نصيحتك. فقال: تالله يا أمير المؤمنين، لقد عمّدت إلى الحجاج في  
تغطرسه وتعجّرفه وبعده من الحقّ وقربه من الباطل، فولّيته الحرّمين، وهما ما  
هما وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأخيار يطوّهم بطغام أهل  
الشام، ورعاع لا رويّة لهم في إقامة حقّ ولا في إزاحة باطل، ويسومهم الحسّف  
ويحكم فيهم بغير السنّة، بعد الذي كان من سفك دماهم، وما انثّهك من  
حرّمهم (...)، فقال له عبد الملك كذبت (...) وظنّ بك الحجاج ما لم يجده  
فيك، وقد يُظنّ الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب...».

و يبدو أنّ سيرة الحجاج الدمويّة كانت محلّ استهجان ودمّ عند معظم الفقهاء  
والمؤرخين الإسلاميين. ويُروى أنّه « قيل للشعبيّ: أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت.  
وقال: لو جاءت كلّ أمة بخبيثتها، وفاسقها، وجننا بالحجاج وحده لزدناه عليهم والله

أعلم». وها هو الدميري يذمّ الحجاج قائلاً: «اللعين الحجاج أخزاه الله وقبحه». وليست ملامح الحجاج في ألف ليلة وليلة بعيدة في الغرابة والتخيّل، بل يُمكن القول: إنّها قريبة إلى حدّ ما من ملامحه التاريخيّة، كما أرّخت لها المصادر الكثيرة، وهي في هذا لا تختلف عن ملامح الخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين من حيث نقاط الالتقاء الكثيرة بين ملامحهم التاريخيّة، ولامحهم في نصوص ألف ليلة وليلة الحكائيّة.